

# عبادة أب الأفاعي السود



الجزء الثاني

عند أب الأفاعي السود

عند أب الأفاعي

كانت النسوة إبان تلك الاجتماعات الصاخبة يتحدثن عن قبور منسية، وأشجار منسية، وعن أشياء أخرى منسية أيضا؛ غالبا ما كان يخفت صوتهن وهن يذكرن هذه الأمور خشية؛ ظل تيمح ينشد لو تتضح أمامه تلك الأشياء في صور واقعية ملموسة. كان يستعصي عليه أحيانا تبيان ما كن يخبرن به بعضهن البعض، لكنه كان يكابد ليلتقط من هذه ومن تلك ما هو ممكن ومهم من الاخبار. حتما كانت أشياء خطيرة و مخيفة تلك التي كن يحاولن اخفاءها خلف همسهن؛ لا يستحسن ذكرها بصوت عال، خصوصا أمام الصغار. كانت هذه الأماكن والأشياء مرتبطة أيما ارتباط بالسكر والسحرة. بالجن والشيطان والعرافيت المشتعلة. تملكه الحيرة فيساءل نفسه: "كيف يمكن فك السحر عن مسحور إن وضع له في إحدى هذه الأماكن؟ كيف يهتدي إلى الشجرة أو القبر المنسيين؟" قد تنتهي حياته على طريق البحث عن أحدهما قبل ان يهتدي إليه. قد يفقد كل أمل في الشفاء والتخلص مما به من "توكال" إن أحس بأثره على نفسه وبدنه. كن يذكرن أسماء لعرافين وسحرة وساحرات كثر؛ لعل أبرز من إتقطه سمعيه من بينهم كان "أب الأفاعي السود"؛ عراف سكن زقاقا ضيقا بالمدينة. أضحت مخيلة تيمح مفعمة بالصور المرعبة. صور تقشعر لها الأبدان. تطير من وقعها على النفس العقول فرقا من هول ما تمثله هذه الشخصية في دنيا الاساطير. كان مخيفا بحاجبيه السوداوين العريضين المنخفضين. بعينيه الجاحظتين. اكتسب شهرة واسعة في أوساط الناس عامتهم وخاصتهم. إحتل منزله ركنا من الدرب كأنه نقطة مراقبة. له بابان تدلان بجلاء على ما بداخله. كان تيمح يخشاه خوفا شديدا. يكره أن يمر قريبا من منزله. أن يرفع عينيه إلى بابه. ظل لسنوات يعتقد أن به أفاع و ثعابين يخبئها داخل صندوق من خشب كما يفعل الحلاليقي. لا تخرج إلا بكلمات منه تحفظ إيقاعها جيدا. لقد رسخ في ذهن تيمح أن الأفاعي والثعابين تأتي الساحر بأخبار الغيب. لكن الأمر لم يكن كما تصور عقله وتخيله. كانت غرفته كما رآها تشبه متحفا قديما لبقايا حيوانات وطيور كاسرة. ضباع وذئاب وحذاءات وطيور البوم. بها رأس غزال تكاد عيناه تخرجان من رأسه. ربما رهبة مما كان يحيط به. في الجانب المظلم منها استقر صندوق من معدن يتدلى منه قفل ضخم. يغطي الصندوق رداءً من ثوب ذي لون قبيح لا يفتحه أمام أحد أبدا. كان القفل رمادي اللون صلبا

جدا كما يبدو من هناك .بدت الغرفة معرضا للحيوانات الهالكة، قد اختلفت نوعا وشكلا.استقرت على الجدران جلود للضواري المفترسة .جلود ذات زغب كثيف. جلود ثعالب ماكرة. اصطفت رؤوسها بغير ترتيب هندسي انيق وقد تسمرت على جدار آخر مقابل الجلود .كم خاف نظرات عيونها تشع شراسة. جعل تلك الرؤوس تتأمل جلودها للعبرة .حزينة تتألم. كان للشعر على الجلود حديث آخر. كان يتدلى منها كاوراق الشجر .يمزج العراف العقار والجداول المكتوبة بشعر الحيوان المناسب.تبعا لنوع الطلب .ودرجة الضرر المراد إلحاقه بالضحية.يختلف الشعر المستعمل ل"التبخيرة"حسب الموقف كذلك. فالشعر المأخوذ من رأس الحيوان ليس كالذي اقتُص من بطنه أو الظهر أو الذيل .كان يستعمل شعر الرأس للتأثير على وظيفة المخ.و شعر الذيل لجعل الضحية تابعا ذليلا ضعيفا أمام من أراد به ذلك العمل؛إذلال الرجل أمام زوجته .ويكون شعر البطن للتأثير على معدة الضحية، فيحرم الأكل حتى يهزل ويضعف وتساء حاله،فلا تطمع به أخرى.يؤثر شعر الظهر على عظام الضحية وفقرات عمود ظهره ومفاصله ،فلا يلزم إلا عمله؛ولا يلزم إلا بيته،يصيبه العجز تماما ،لا يتحرك إلا للضرورة القصوى...

هكذا رتب العراف غرفة عمله؛ عيادته المزودة بأحدث الوسائل التقليدية الأكثر تطورا في عالم الشعوذة .كانت تبدو مخيفة أمام الزوار بظلمتها ،بدخان البخور والعقاقير الذي يغرق كل أرجائها. كان يحرق المكونات مع شعر لآدمي أو لحيوان صغير مكروه على مجمر ذي ثلاثة أرجل ،دائري الشكل من المعدن،وآخر أقرب الى الشكل البيضاوي من الطين،يستخدمه لأغراض أخرى أكثر تأثيرا.لا تفارق رائحة الشعر غرفته،خانقة كريهة منفرة. كان الرجل مهيب الجانب مثل غرفته،محترما؛يغلف جلوسه على زريته الصوفية الوقار؛ بجانب تلك الزربية الصغيرة، تتكى وسادة حمراء من ثوب بال ،يضع بها أشياء مجهولة يستخرجها متى بدء العمل. لا يشعر الزبون بحدة نظراته .رغم ذلك، كانت عيناه الناعستين مخيفتين. تقف أمامه الضحية مستسلمة .تنتظر نتيجة تحليله للموقف المعروض أمامه،وتنتظر أكثر من ذلك قيمة المبلغ الذي ستدفعه مقابل هذا العمل. لا يهمس أب الأفاعي بكلمة إلا قابلها الزبون قائلا : "مُسَلِّمِينَ لَسَيَادُنَا ؛ مُسَلِّمِينَ لَرَجَالِ لَبْلَادُ مُسَلِّمِينَ وَمُكْتَفِينَ " و ما كان

المقصود بـ"رجال البلاد أسيادنا" سوى الجن الذين يخدمون العراف، وكان هو نفسه خادمهم المطيع؛ و من وجودهم كان و عيادته يستمدان المهابة والوقار. تختفي الغرفة أحيانا بمن فيها وما فيها عن الأنظار خلف الدخان الدامس، يعم الصمت الرهيب؛ يسكن كل شيء فجأة. ثم، ينجلي الأمر بعد حين. ينسحب الدخان عبر الباب المفتوحة، ومن ثقب بالجدار يشكل "كوة" بها شبك صغير. وبانسحابه يكون العمل قضي قضي. يغادر الزبون منشرح الأسارير فرحا خفيف الظل كأنه عاد من عمرة. كذلك كانت حال الساحر أب الأفاعي السود، وكذلك كانت حال عيادته و حال من يقصد داره. كان عمله يذر عليه أموالا طائلة. كانت أغلب الزبونات من النساء المتزوجات. من الأمهات؛ من العجائز الشمطوات "العاقسات" على حد تعبير الناس في ذلك الزمان. تحضر العواطف في أسوأ تجلياتها بوجودهن هناك. تحمل هؤلاء النسوة صغارهن إلى بيت أب الأفاعي السود إن أصابهم مكروه. إن ضربهم "طيّر الليل" الوطواط أو الخفاش. ما من صبي يصيبه هذا الطائر برائحته النتنة، إلا كان لأب الأفاعي السود نصيب من مال أمه أو جدته. نصيبا مفروضا. يمرر العراف شفرة الحلاقة على جبهة الصبي أو مقدمة أنفه، فيحدث جرحا صغيرا؛ يملأه بعد نرف قليل بمسحوق أسود، ربما كان من مسحوق البارود، أو من مسحوق الإثمد (الكحل) كما أكده الكثيرون وهم يتحدثون؛ يُسمع للصبي صراخ تتحرك معه يداه ورجلاه حركات سريعة في كل الإتجاهات. تستجيب له عين الأم دمعا حارقا قبل أن يستجيب كفها نقدا في يد العراف. تنصرف المرأة تحت وقع كلمات الشواف على مسمع «لا تخافي عليه، سوف يشفى". يتبع كلماته وقد أوشكت المرأة تختفي خلف باب الغرفة قائلا "لا تنسي الحنثيت، ضعي الكثير من المادة على رأسه وبطنه". تنطلق المرأة مسرعة والصبي بين ذراعيها. تهمس في خشوع: "مسلمين، مسلمين لسيادنا". ثم يستقبل أب الأفاعي زبونا آخر وآخر ممن ينتظرون في بهو داره. لا ينتهي يومه إلا بانقطاع حركة المريدين القادمين من كل الدروب والمسالك والطرق.

كانت المظاهر التي حضر موائدها سواء في الحلقيات أو عند أب الأفاعي السود، ومع صاحب الحصوات السبع، كانت تبعث في نفسه الدهشة والخوف من المستقبل وعليه. كانت أعمال هؤلاء العرافين تؤتي أكلها أمام

عينيه. يشفى المريضات من النساء والصبيان وحتى من يقصده من الرجال. كثيرا ما دخلت شابات عرين الزوجية إثر زيارتهن لبيوت العرافين والعرافات. حدثت أمام عينيه أمور تحدثت بها النساء في منزل أبيه وهو صغير . كانت آنذاك مستقبلا في حكم الغيب فصارت ملموسة الوجود بعد فترة من الوقت. شفي صغار استعصى مرضهم على طب الطبيب .حدث طلاق تشتت على أثره أسر وضاع أطفال أضحى الشارع مأواهم. هزل رجال و نساء لدرجة الموت؛ تحققت أمنيات وتنبؤات . صار الشوافون والسحرة يضربون في الأرض بلا حسيب ولا رقيب .يغتنون على حساب أبرياء يرجون في زيارتهم حصول البركة في شفاء أو خير أو ارتباط في الحلال وحتى في الحرام وقد أعمتهم عواطفهم، واغتنوا على رقاب أشقياء دفعتهم غيرتهم و حسدهم و حقدهم وغلهم للإنتقام من غرمائهم...

كان إيمانه بسلطة العقل والعلم وقدرتهما على تجاوز هذه المظاهر المتناقضة قويا جدا .حين فكر في الإرتباط ،كانت أمانيه أن يجد شريكا لا يحكم على الأشياء إلا بآلية العلم ودستور العقل .أينعت دراساته عن رواد تحرير الفكر من الأدباء أمثال طه حسين والعقاد والرافعي وعائشة عبد الرحمن ،وتحرير الانسان أمثال الكواكبي وقاسم أمين ومحمد عبده، ثمارا غذى بها طموحه واندفاعه نحو التحرر من سلطان العواطف التي كبلت الكثيرين، والتخلص من حبل الإرتباط بالخرافة والأساطير التي عاقت حركة التحرر والتقدم في مجتمعه لسنين.أدرك أن الأم المتعلمة الواعية ،هي مدرسة قائمة الذات .وهي نواة بناء الأسرة السليمة من هذه العلل ؛هي السلاح الأمثل لدحر أوكار الأسطورة ،الأسطورة التي هي البساط الناعم الوثير الذي تتفشي عبره آفة الشعوذة؛ وعلى عشبه يرتع السحرة والعرافات. كان يؤمن أن الأم هي نافذة أبنائها على المستقبل النظيف المزدهر .لكنه كان يؤمن أيضا أن الأم عاطفة، رغم ملكة العقل القوية التي تمتلكها كل امرأة.

كان تيمح ينظر إلى المستقبل القريب والبعيد بخشية، برهبة ؛كان يخاف أن يضطره الزمان إلى اللجوء إلى هؤلاء العرافين، يطلب بركاتهم ،يعتمد أدواتهم طلبا للنجاة. سقطت الأم المدرسة في بيته - كما سقطت في صغره المدرسة أمه التي ولدته- سقطت طريحة الفراش في ذات مساء من المساءات الصعبة

في حياته .سقطت تهدي من صدمة أصابت عقلها وهي ترى على حائط دارها رأس امرأة يقطر الأنف والفم منه دما أحمر قان .حملها عند الطبيب آملا أن يكفيه صاحب العلم شر ما حل بها،ويكفيه شر اللجوء إلى العرافين .سيطاله الإنكسار وينهزم أمام أفكار يمقتها ويكره أن يزكيها بعد رفض . يكره أن تصبح الشعوذة وأعمال السحرة هي الفيصل .الفيصل بين إيمانه المطلق بالعقل والعلم،واعتقاده المطلق بكذب وزيف ما يدعيه العرافون ،وبين أن يلوذ بهم ويخضع لسلطة دجلهم. رأى الغلبة يوم سقوطها للعرافين .أحزُرُ مكتوبة بمداد أسود ،بريشة من قصب-طُلب إحراقها في وقت معين من الليل،ممزوجة بعقاير من مواد مختلفة وأعشاب-كانت كافية لطرد الأرواح الشريرة التي هددت صحة المرأة .نجت الأم برائحة أوراق مكتوبة بشكل غريب؛ فتبخر معها طب الطيب وعلمه أمام عينيه ؛ تغيرت نظرتة إلى ذلك الموروث الثقافي الذي يحمل لواء الخرافة عاليا خفاقا . فشل دواء الطبيب في ذلك الليل الحالك الذي رأى فيه تلك المسكينة خائفة ترتعد .تكررت صورة هزيمته أمام الخرافة أمام عينيه واضحة يوم رأى ابنته الصغيرة تسقط بين برائن "طير ليل" المमित .لم يكن مقيما في المدينة التي بها العراف أب الأفاعي السود فيطلب مساعدته مرغما.كانت بينهما مسافات طويلة من الزمان. كاد المرض يفتك بالمسكينة الصغيرة .لم يجدها نفعا دواء الطبيب الباهض ثمنه .خرج إليه يحملها بين ذراعيه في ذلك الليل من رمضان ينشد بركات علمه. ترك الطعام على المائدة وانطلق من هول ما رأى يرجو عنده نجدتها .قيء من الفم والأنف كالمزراب في يوم ماطر.وَهَنُ أصاب الجسدَ .تدلت يديها والرأس في فتور؛ ما نفع العلم ،ولا نفع طب ذلك الطبيب، وما نفع المال الذي جعله فداء لها ليلتها.. ما تجلت للشفاء صورة.كانت الأمور تنحو في تصاعد نحو الأسوء . تملكه اليأس والخوف على الصبية .سار على الطريق كالتيهان لا يدري أي وجهة يتوجهها . في غمرة ذلك الشرود ، وجد نفسه فجأة وقد استفاق من شروده . وجد نفسه أمام عراف ليس كبقية العرافين. لم يكن من أصحاب الحلقيات .ما كان من السحرة البيّن سحرهم .ما كانت له غرفة مهيبة كغرفة أب الافاعي السود،ولا حصوات مسكونة. كان عرافا متجولا يداوي بطبه البسيط التقليدي من عجز الطب المتقدم عن مداواته . تقدم إلى تيمح يسأله عن سبب وجومه وابتأسه، كان وقورا .دافئ

الحديث .واثقا من نفسه .يضع جلبابا صوفيا رمادي اللون .على رأسه عمامة بيضاء تخفي شعره الأسود وأذنيه .قال تيمح وقد فقد الأمل حتى في هذا اللقاء العابر :-"إن ابنتي ...." استوقفه الرجل بابتسامة عريضة يقول " لا عليها ، إنها ضرية "طير ليل"، اين هي؟ هل يمكن أن أراها؟"عجبا ! كيف عرف ؟

رأى الرجل الفتاة فعرف ما بها "إنه الوطواط،لقد تركتموها عرضة لرائحة الوطواط" أردف و قد تغيرت ملامح وجهه إلى غضب شديد كأنه رأى جنيا .لم يكلف الأمر-أمام ذهول تيمح - مجهودا كبيرا في الفحص ،ولا مالا كثير من أجل الدواء، ولا حتى وقتا إضافيا للشفاء." لقد شفيت ابنتي أيها الرجل الطيب، شكرا لك " قالها وهو يمد قليلا من مال يضعه في كف الرجل لا يكفيه حتى لشراء دجاجة ؛ قهره هذا الموقف، وبث الرعب في نفسه خوفا على أبنائه وبناته مما رآه. صار سرايا كل ما كان يعتقد به تجاه العرافين والسحرة. قهرت تلك المواقف علمه وعقله ووعيه الذي جعله سياجا واقيا من مكر هؤلاء وخداعهم ،ودرعا حاميا من الأشرار التي كان يؤمن يقينا انهم ينصبونها للسدج من الناس حتى يستحوذوا على أموالهم بعد ان يروضوا عقولهم. وجد نفسه تائها ضائعا تغشاه حيرة قائمة في فهم العلاقة الغامضة بين ذلك النوع من المرض وهؤلاء الذين يقرؤون ملامح وجه المريض، فيتعرفون ما أصابه دون أشعة سينية ،أو أجهزة كاشفة. تنتابه الحيرة من العلاقة بين هذا المرض وتلك الوصفات البسيطة التي يقدمها هؤلاء العرافون لمرضاهم دون نظام واضح في التركيب الكيميائي كما ونوعا.تكاد الحيرة تقتله من تلك الأعشاب الموجودة في الطبيعة بكثرة ، لكن لا يمكنها إحداث الأثر الإيجابي إلا متى كانت في يد من يملك " لِحَكَمَ " عند العامة أي في يد الحكيم؛ وصاحب "الحِكْمَة " ، لم يكن يعني دائما من يملك "الحِكْمَة " بكل ما لها من معان ، بل من تحكم في أمر وتمرس عليه فأتقنه. فالعرا ف الذي يتحكم في الجن يملك "الحِكَمَ" في نظر الناس.والذي يداوي بالأعشاب والعقاقير فتؤتي أكلها تماما كما يحدث مع دواء الطبيب أو افضل أحيانا هو صاحب "حَكَمَ".اليوم صار حتما على تيمح الاعتراف بقدرتهم على التأثير على الناس؛ وأصبح واجبا عليه الإقرار بإنجازاتهم الخارقة،و قد كان شاهدا عليها

؛وقد تجلت بين عينيه في أكثر من موقف .كانت ذاكرته مليئة بالصور الرهيبة للأحداث التي مرت به، والتي رأى من خلالها للعرافين يدا طولى في التعامل مع معاناة زبنائهم بأسرع وقت،وبأقل تكلفة و أقل مجهود.

ظلت الحكايات تسرد على مسامعه من هنا ومن هناك، من هذا و من تلك ،في منزل أبيه كما في أزقة المدن التي سكن بها ،أو تلك التي ارتحل إليها للدراسة ؛تحكي قصة الخصام الأبدي بين الحب في صراعه المرير مع الكراهية والغيرة والانتقام؛بين العقل والعلم في حربهما الضروس أمام الشعوذة وأدواتها .ما ساورته ظنون في ما روته هذه الحكايات من أحداث عجيبة مروعة. و لا في ما تناقلته النسوة من أخبار عما يجري في البيوت أو في غرف العرافين. يحفظ يقينا روايات كثيرة، روايات بها مبالغات رآها فقط من محسنات الكلام، تشويقا للسامع لزيادة معرفته، وللعارف حبا في مزيد من الفهم والإطلاع على أسرار ذلك العالم الغامض.

ظل ينتظر أن يخفت بريق هؤلاء العرافين مع تقدم العلوم وسيطرة التكنولوجيا على المجالات الصناعية والصحية والتعليمية وعلى الفلك، ينتظر أن تجف منابعه باتساع رقعة الوعي بين الناس ،تحمله إليهم وسائل الإتصال المنتشرة بشكل رهيب . ظل يتطلع إلى انتصار العلم والعقل حماية لأبنائه وبناته وللإنسان من شر زمن آت، قد تدير دواليبه أفكار من زمن الأجداد ؛لكن صناعة الفكر المتحرر الواعي،بدت بطيئة في مجتمع تتفشى فيه بقايا الماضي، ويقبع داخل خُم الدجل، ويرزح تحت رحمة الخرافة وبركات المشعوذين. سيكون على موعد مع هؤلاء ذات يوم لا محالة.سوف يقارع أعمالهم ،وسيتصدون لفكره المتحدي لخداعهم. هو في حل مما يَمكرون، لكنه لا يستطيع تجاهل قوة كيدهم ،و أثر ما يكيدون.